

المحاضرة الثامنة: نظرية الدولة لدى ابن خلدون

تندرج نظرية الدولة عند ابن خلدون ضمن إطار ما يعرف بـ"علم العمران البشري"، حيث حاول من خلالها تفسير الظواهر السياسية تفسيرًا تاريخيًا واجتماعيًا قائمًا على الملاحظة والاستقراء، بعيدًا عن الطرح الفلسفي المجرد الذي ميّز أعمال أرسطو وأفلاطون. وقد انطلق من فرضية أساسية مفادها أن الدولة ظاهرة طبيعية تنشأ عن الاجتماع الإنساني، وتخضع لقوانين التطور والانحلال.

أولاً: مفهوم الدولة ونشأتها عند ابن خلدون

تعد الدولة ظاهرة سياسية قديمة شغلت اهتمام عدد كبير من المفكرين عبر التاريخ، حيث انصرفوا إلى دراسة أسباب نشأتها وتطورها، ومفهومها وأشكالها المختلفة. وإذا عدنا إلى الجذور اللغوية لمصطلح "الدولة"، نجد أنه في اللاتينية يرتبط بكلمة *status* التي تدل على "الحالة" أو "الوضع المستقر"، وهو ما يعكس دلالة الثبات والاستقرار في الفكر الغربي. أما في اللغة العربية، فإن لفظ "الدولة" يحمل معنى مغايرًا، إذ يرتبط بالفعل والتحول، أي الانتقال من حال إلى حال، وهو ما يعكس تصورًا ديناميكيًا للسلطة والتاريخ.

وقد أشار ادمون رباط المفكر القومي العربي والقانوني السوري إلى هذا الاختلاف الجوهرى بين الذهنتين الشرقية والغربية، فبينما نظر الغربيون إلى الدولة بوصفها كيانا ثابتًا ومستقرًا ينبغي أن يستمر، رأى الشرقيون -بحكم تجاربهم التاريخية- أن الحكم عرضة للتغير والتبدل. ويعكس هذا التباين اختلاف السياقات التاريخية والسياسية بين الشرق والغرب.

في هذا الإطار، يقدم ابن خلدون تصورًا متميزًا للدولة، إذ لا يعرفها تعريفًا قانونيًا جامدًا، بل ينظر إليها بوصفها كائنًا حيا يخضع لقانون السببية والتطور، فهي مؤسسة بشرية طبيعية وضرورية، لا تقوم الحضارة إلا بها. غير أن هذه الدولة، في نظره، ليست كيانا ثابتًا، بل ظاهرة متغيرة تخضع لدورة تاريخية من النشأة إلى الازدهار ثم الانهيار.

وينطلق ابن خلدون في تفسيره لعدم استقرار الدولة من رؤية أوسع تتعلق بطبيعة الاجتماع الإنساني نفسه، حيث يؤكد أن أحوال العالم والأمم لا تدوم على وتيرة واحدة، بل تتغير باستمرار عبر الزمن. وهذا ما عبّر عنه في مقدمته بفكرة أن التاريخ قائم على التحول والتبدل، لا على الثبات والاستقرار.

ومن الملاحظ أن ابن خلدون لم يقدم تعريفًا اصطلاحيًا دقيقًا لكلمة "الدولة"، بل استخدمها في سياقات متعددة وبمعانٍ مختلفة، فقد عبّر بها عن الملك، أو السلطة، أو الحكم، أو حتى عن شخص الحاكم ذاته. وهذا التعدد الدلالي يعكس طبيعة المفهوم في عصره، كما يكشف عن مرونة في استعمال المصطلحات.

ومع ذلك، فإن إسهامه يظل رائداً، لأنه استخدم مفهوم "الدولة" كمفهوم سياسي واضح في سياق تاريخي لم يكن هذا المصطلح قد استقر فيه بعد، خاصة إذا ما قورن بالتطور اللاحق للمفاهيم السياسية في أوروبا. كما يبرز في تحليله عنصر "الشعب" باعتباره مكوناً أساسياً في قيام الدولة، حيث يؤكد أن وجود السلطة يفترض بالضرورة وجود جماعة بشرية سابقة عليها. غير أن هذا "الشعب" عنده لا يفهم بالمعنى الحديث، بل غالباً ما يقصد به الجماعة العصبية، أي القبيلة أو الفئة القائدة التي تمتلك القوة والتماسك. وقد أشار إيف لاکوست إلى أن استعمال ابن خلدون لمفهوم الشعب غالباً ما يحيل إلى هذه العصبية المؤسسة للدولة.

يرى ابن خلدون أن الدولة ليست مجرد تنظيم سياسي أو مؤسسة قانونية، بل هي تعبير عن سيطرة جماعة بشرية متماسكة، أي "عصبية"، على غيرها من الجماعات. فالدولة في جوهرها هي امتداد لسلطة هذه العصبية في المكان والزمان، وهي بذلك ظاهرة اجتماعية قبل أن تكون سياسية.

كما يربط ابن خلدون بين قيام الدولة والحاجة إلى "الوازع"، أي السلطة التي تمنع الناس من التعدي على بعضهم البعض، لأن الإنسان بطبعه ميّال إلى العدوان إذا لم يجد من يردعه. ومن هنا تصبح الدولة ضرورة لضبط النظام الاجتماعي وتحقيق الاستقرار.

ويميز أيضاً بين نوعين من الدولة: دولة خاصة تقتصر على إقليم محدود، ودولة عامة تمتد سلطتها إلى مجالات أوسع وقد تفرض هيمنتها على كيانات سياسية أخرى. وهذا التمييز يعكس إدراكه لتفاوت أشكال السلطة السياسية بحسب قوة العصبية.

1_ نشأة الدولة وأسس قيامها

يفسر ابن خلدون نشأة الدولة انطلاقاً من الحاجات الطبيعية للإنسان، مثل الغذاء والأمن والاستقرار، والتي لا يمكن تحقيقها إلا في إطار جماعي منظم. ومع تطور هذا الاجتماع، تظهر الحاجة إلى سلطة تنظم العلاقات وتفرض النظام.

غير أن العنصر الحاسم في نشأة الدولة هو "العصبية"، أي التضامن الاجتماعي القائم على النسب أو الولاء، والذي يمنح الجماعة قوة الغلبة. فالدولة لا تقوم إلا عندما تتمكن عصبية معينة من فرض سيطرتها على غيرها، وغالباً ما تكون هذه العصبية ذات أصل بدوي، لما تتميز به من قوة وصلابة.

كما يؤكد ابن خلدون أن العصبية لا تظل ثابتة، بل تتغير مع الزمن، وهو ما ينعكس على استقرار الدولة أو ضعفها.

2_ أعمار الدول ومراحل تطورها

يتبنى ابن خلدون تصورا عضويا للدولة، إذ يشبّهها بالكائن الحي الذي يولد وينمو ثم يشيخ ويموت. ويقسم عمر الدولة إلى ثلاث مراحل كبرى:

في المرحلة الأولى، أي مرحلة التأسيس، تكون العصبية قوية، ويغلب على المجتمع الطابع البدوي، حيث يسود التماسك والتضامن، ويكون الحاكم قريباً من أفراد جماعته.

أما في المرحلة الثانية، وهي مرحلة النمو، فتبدأ الدولة في التوسع والاستقرار، ويتحول المجتمع تدريجياً نحو الحضارة، ويظهر الترف، مما يؤدي إلى بداية ضعف العصبية.

وفي المرحلة الثالثة، أي مرحلة الهرم، يشتد الترف وتضعف الروابط الاجتماعية، ويعتمد الحاكم على عناصر خارج العصبية، مما يؤدي إلى تفكك الدولة وانهارها.

ويحدد ابن خلدون عمر الدولة غالباً بثلاثة أجيال، أي ما يقارب مائة وعشرين سنة، وهو تقدير تقريبي يعكس ملاحظاته التاريخية.

3_ أطوار الدولة (الدورة السياسية)

يفصل ابن خلدون تطور الدولة إلى خمسة أطوار دقيقة، تعكس التحول التدريجي في بنيتها:

_ في طور الظفر، تنشأ الدولة نتيجة تغلب عصبية قوية، ويكون الحكم قائماً على المشاركة داخل الجماعة.

_ ثم يأتي طور الاستبداد، حيث ينفرد الحاكم بالسلطة ويبدأ في إقصاء شركائه في العصبية، معتمداً على القوة والموالين.

_ وفي طور الرفاه والازدهار، تبلغ الدولة ذروتها، حيث ينتشر العمران وتزدهر الفنون والاقتصاد، غير أن هذا الازدهار يحمل في طياته بذور الانحلال بسبب الترف.

_ أما طور القناعة، فيتميز بالجمود، حيث يكتفي الحاكم بتقليد أسلافه دون إبداع أو تجديد.

وأخيراً، يأتي طور الإسراف والانهيار، حيث يشتد الفساد، وتضعف الدولة، وتصبح عرضة للسقوط أمام عصبية جديدة أكثر قوة.

4_ أنواع الملك والسياسة

يقسم ابن خلدون الحكم إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

أولها الملك الطبيعي، وهو القائم على القهر والغلبة، حيث يعتمد الحاكم على القوة دون اعتبار للقوانين أو القيم.

وثانيها الملك السياسي، الذي يقوم على العقل وتدبير المصالح، وهو أقرب إلى النظم المدنية التي تعتمد على القوانين.

أما ثالثها فهو الخلافة، التي تقوم على الشرع، وتجمع بين السلطة الدينية والسياسية، وهي في نظره النموذج الأمثل لأنها تحقق التوازن بين مصالح الدنيا والآخرة.

كما يميز بين نوعين من السياسة: سياسة شرعية تستند إلى الدين، وسياسة عقلية تستند إلى المصالح. وهذه الأخيرة قد تكون عادلة إذا راعت المصلحة العامة، أو استبدادية إذا اقتصرَت على مصلحة الحاكم.

5_ أسباب سقوط الدول

يرى ابن خلدون أن سقوط الدول نتيجة حتمية لتراكم مجموعة من العوامل، أهمها ضعف العصبية التي كانت أساس قيامها. ومع انتشار الترف، يفقد المجتمع روح التضامن، ويصبح أفراده ميالين إلى الراحة والاعتماد على غيرهم.

كما يؤدي الصراع الداخلي بين أفراد الطبقة الحاكمة إلى إضعاف الدولة، خاصة عندما ينفرد الحاكم بالسلطة ويقصي شركاءه. ويضاف إلى ذلك اعتماد الدولة على المرتزقة أو العناصر الأجنبية، مما يفقدها دعمها الاجتماعي.

وفي هذه المرحلة، تصبح الدولة عرضة لهجوم عصبية جديدة أكثر قوة، فتسقط وتبدأ دورة تاريخية جديدة.

ثانياً: المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها مفهوم الدولة عند ابن خلدون

1_ الدولة في التصور الخلدوني

يرى ابن خلدون أن الدولة ظاهرة اجتماعية طبيعية تنشأ نتيجة حاجة الإنسان إلى الاجتماع والتنظيم، وليست مجرد بناء سياسي مصطنع. فهي ثمرة لتطور العمران البشري، وترتبط بقدرة الجماعة على فرض النظام وتحقيق الاستقرار.

2_ العصبية كأساس لقيام الدولة

تعد العصبية المفهوم المركزي في بناء الدولة عند ابن خلدون، وهي رابطة التضامن التي تجمع أفراد الجماعة، سواء كانت قائمة على القرابة أو الولاء. وتكمن أهميتها في كونها:

- ✓ القوة التي تمكن الجماعة من التغلب على غيرها.
 - ✓ الأساس الذي تقوم عليه السلطة السياسية.
 - ✓ العامل الذي يمنح الدولة القدرة على التأسيس والاستمرار في بداياتها.
- فكل دولة في نظره تبدأ بعصبية قوية، ثم تضعف هذه العصبية تدريجياً مع مرور الزمن.

3_ الملك والسلطة

يربط ابن خلدون بين الدولة ووجود الملك (السلطة الحاكمة)، حيث يرى أن الحكم لا يقوم إلا بوجود قوة القاهرة تنظم المجتمع وتمنع الفوضى، فالسلطة عنده ضرورة اجتماعية وليست اختياراً. وتقوم على الغلبة في البداية، ثم تتحول إلى نظام مستقر. وتسعى إلى احتكار القوة وتنظيم شؤون الرعية.

4_ العمران البشري

يعد مفهوم العمران من المفاهيم الأساسية في فكر ابن خلدون، ويقصد به نمط الحياة الاجتماعية والتنظيم البشري. ويرتبط قيام الدولة بازدهار العمران، حيث:

- ✓ يوفر الاستقرار السياسي شروط التقدم الاقتصادي والاجتماعي
- ✓ تتأثر قوة الدولة بازدهار العمران أو تراجعها.
- ✓ يؤدي الترف والفساد في العمران إلى ضعف الدولة وانهارها.

5_ دورة حياة الدولة

من أهم أفكار ابن خلدون أن الدولة تمر بمراحل تشبه حياة الإنسان، كما ذكرنا آنفا وهي:

- أ_ مرحلة النشأة: تقوم على العصبية القوية والبداءة.
- ب_ مرحلة القوة: يترسخ الحكم وتتحقق السيطرة.
- ج_ مرحلة الرفاه: يسود الترف ويضعف التضامن.
- د_ مرحلة الانحلال: تتفكك العصبية وتضعف السلطة.
- هـ_ مرحلة السقوط: تنهار الدولة وتُستبدل بغيرها.

6_ العلاقة بين البداءة والحضارة

يميز ابن خلدون بين:

- ✓ البداءة: حيث العصبية قوية والبنية الاجتماعية بسيطة.
- ✓ الحضارة: حيث الاستقرار والترف، لكن مع ضعف العصبية.

ويرى أن الدول تنشأ غالبا من البدو، ثم تتحول إلى حضر، فتضعف تدريجيا.
في الاخير يمكن ان نخلص الى ما يلي:

تكشف نظرية ابن خلدون عن فهم عميق لطبيعة الدولة بوصفها ظاهرة تاريخية متغيرة، تخضع لقوانين اجتماعية محددة. وقد تميز تحليله بربطه بين السياسة والاجتماع، وباعتماده على الملاحظة التاريخية بدل التنظير المجرد. ومع ذلك، فإن هذه النظرية لا ينبغي فهمها كقانون حتمي مطلق، بل كإطار تفسيري يساعد على فهم حركة التاريخ، مع مراعاة خصوصية كل تجربة تاريخية.

بالامكان الاطلاع على المقال التالي:

سعودي أحمد، فكرة الدولة ونشأتها عند عبد الرحمن ابن خلدون، مجلة العلوم الإنسانية والحضارة، المجلد 03 العدد 02
السنة 2021، ص ص 24-41.